ترنيمة الماء

صاح الديك ساعة الفجر!. فرفعت العجوز رأسها خلال نافذة الجدار السميك، وحدّقت!. مازال الظلام مخيماً. ومصباح الشارع، فوق الجدار، يلقي ضوءه الشاحب جانب الشجرة، حيث يخترق الأغصان فالنافذة وصولاً إلى السرير. فتدفع الريح الخفيفة أغصانها باعثةً حفيفاً أغنّ، وتهتزّ بقع الضوء المرميّة فوق فراش العجوز!.

رنت العجوز مليّاً إلى الضوء المتراقص فوق غطائها، وهي تصيخ السمع لأصوات الهوام تأتي من الغابة القريبة، فتنبح الكلاب، في المقابل، وبين هذه وتلك، كان يصدر غناء الضفادع والجنادب. فأحسّت بالخدر، وعادت للنوم من جديد.

مرّ الهلال حتى اكتمل بدراً، وأطلق الشعاع من وراء الجبل، فارتفعت أضمومة قوس قزح إلى الكواكب التي تسبح في حركة دائبة نشطة. ثم فجأةً، أضحت أصوات الهوام الضواري قويةً، فأجفلت العجوز، وفزّت للصخب المنطلق!. كلبها هادئ صامت، درج على عادةٍ قديمةٍ، أن لا نباح عندما تغفو السيدة المتعبة!.

بعد قليل، انطلق الكلب والديك في صوتين معاً، عندها أدركت العجوز أن وقت الصلاة قد حان. نهضت في عزم، ومكثت لحظةً تراقب أضمومة الضياء الصاعدة، فيما ترتطم عند أطراف الغمام، وتنشر في المدى ألقاً. من ثم مضت إلى شغلها!.

جابت المكان، بين مستودع العلف والزريبة، بحركة عصبيةٍ منفعلةٍ، راكضاً الكلب على أعقابها، ورشّت الحبّ للدجاج المحتشد خلف السياج، حيث تقافز بعضه فوق بعض، وانكبّ على الطعام!.

في الحظيرة، كانت البقرة تركل الأرض علامة الجوع، وتطلق الشياه ثغاءاً متلاحقاً. فألقت العجوز حملها، وراحت توبّخ القطيع:

املأن البطون، وافرشن الزريبة بالقذر!.. واصرخن!.. هذا شغلكن الشاغل، ثم تعالي أيتها العجوز لتنظفي!.. إني لأشعر أني الخادمة، وأنتن الأميرات!.. اسمعن!.. سيصل الغمر قريباً، وتنتهين معه، مفهوم؟!.. أمان.. جانم.. أمان!.

بيت العجوز متداعٍ ضعيف، أخنى عليه الزمن، وأصبح في سجلات الحكومة، قيد الترميم، يحمل دفءً من الماضي، وجمالاً. لكن الأمر لم يتمّ، ظلّ طيّ الوعود، إلى أن تقرر بناء السد، فاحتلّ المشروع الجديد مكان الصدارة، وضرب الصفح عنه كليّاً!. مازال هيكل السد يعلو شامخاً، ويزحف الغمر حتى ابتلع أربعين قرية ممتدّاً في السفوح والوديان، طولاً وعرضاً!.

لم تستسلم العجوز، قررت البقاء هنا حتى آخر لحظة!. لطالما طرحت الأمر على الرائح والجائي. وقررت في النهاية، أمام جاراتها العجائز، أنها لن تهدأ أبداً، حتى لو لزم الأمر، أن تصرخ في وجه المسؤولين أو تبكي!.

بعد أن أشبعت القطيع، وقفت مرة أخرى تلقي عليه خطاباً:

يا حيوانات !..

أنا مسافرة إلى اسطنبول.. سوف أوصي بكن جارتنا العجوز حتى أرجع.. يجب عليكن طاعتها كل الطاعة!. مفهوم؟!.

نظرت إلى الكلب يهزّ لها ذيله، وإلى البقرة تصدر خواراً أجشّ. أما الشياه، فحدجن العجوز بعيون صغيرة مستديرة ملؤها الدهشة!. قالت لهن العجوز:

تردن القول، وماذا تفعلين في اسطنبول؟!. لا تدسسن أنوفكن في شيءٍ لا يخصّكن!. مفهوم؟!. أمان، جانم، أمان!.
أغلقت الباب بمفتاحٍ ضخمٍ، مروراً بجارتها العجوز، فشوّرت أمامها، وخفقت باليدين، ثم أسلمتها المفتاح، وغادرت!.

في العراء، خلال الدرب الترابية، تراشقت ريح قوية ثوبها الطويل يمنةً ويسرةً، وبعثرت شالها الخفّاق. أما عصابة الرأس فكانت ثابتةً محكمةً، في عقدة على الجبهة، تركت شرافيف الخيوط خلف رأسها نهباً للريح!.

هناك المحطة!. بناءٌ منفردٌ صغير، وراياةٌ من قماش أحمر، عليه الهلال كعرف الديك، تصفق به الريح دون هوادة!. كان القطار على وشك الإقلاع، فأخرجت العجوز ساعة فضية، بسلسالٍ طويل، وألقت نظرة، ثم حثّت الخطى قليلاً!.
مالبث أن أطلق القطار صافرة التنبيه، كانت العجوز قد صارت في المحطة!. فأخذ العامل بيدها عند سلّم المقطورة، فتقدّمت خلال الممرّ، ووجدت مقعداً خالياً عريضاً، مواجهاً لآخر قد احتلّه زوجان وطفلان. فألقت العجوز ابتسامة للطفلة الصغيرة، وعلّقت عكازها برفٍّ جانبيٍّ. ثم جلست.

للتوّ، راحت تخاطب الطفلة الصغيرة، وتطمئنّ عليها، ما شاء الله، كيف الحال؟!. على ما يرام، إنشاء الله؟!. أراك تلبسين ثياب الربيع، ونحن لم نغادر الشتاء بعد!.
لم تخرج الطفلة عن صمتها. راحت تحدّق باستغراب!.
فاستأنفت العجوز:
من ناحية، معك الحق، سطع البدر في الليل، وكان أزيز الجنادب، والضفادع!. علامة الربيع!.
راح الطفل ينقّل عينيه في فضول، بين العجوز وأخته. كانت الأمّ تثرثر في سمع الرجل، وهو جاحظ بعينيه في الفراغ!.

ثم انطلق القطار!..
تابعت العجوز تخوم القرية الراكضة إلى الوراء بنظرة شاردة. وإذ لوى القطار في محيط الهضبة، وصارت المقبرة في مرمى النظر، عادها التفكير فيها!.. حيث مشهد الوهن، وقد اعترى الشواهد المنتصبة، فأحنى ما أحنى للبلى، وقصف ما غزاه العطب للحطام!. الآن، يرفّ منديل أخضر فوق هام الشاهدة، ذاك هو مثوى أبيها!.

فجأة، انطلق الطفل راكضاً في الممرّ. فأثار ضجّة ووقف قبالةَ طفل آخر محشورٍ بين يدي أبيه، فتبادلا نظرة صامتة. ما لبث أن واصل الطفل الركض لاوياً رأسه صوب صاحبه السجين.
ربما يكبرُ الطفلُ الطفلةَ سنةً من العمر. لكن فوارق أخرى تسترعي الانتباه. لوت العجوز بين هذا وتلك للتخمين!.. ووجدت الطفلة ما تزال ترنو إليها بنظرة الفضول، فألقت لها ابتسامةً، وشعرت للتوّ بالتعب. فأغمضت عينيها للراحة!. ولم ترفع جفنيها إلاّ حين صاح القطار على مشارف المحطة التالية.
هذه البلدة تعرفها. هنا، لها بعض الأقارب، كانوا قد استبقوا وصول الغمر إليهم، وارتحلوا. في التقائها معهم أخيراً، سمعت الشيء العجاب، ما ترك في صدرها ألماً وحسرة. لقد أصابها الغمّ خاصةً حين شرعوا يتحدّثون عن الموتى!.. كان عليهم حمل موتاهم والقبور، فوجدوا العظام الجافة النخرة، يا رحمة الله!.. حيث الجماجم بعيون منقعرةٍ فاغرةٍ، والفكّان بأسنان عاريةٍ ضاحكةٍ!.. ظلت تسمع العجوز القصة في رهبة، حتى جاؤوا على ذكر من قضى نحبه مؤخّراً، ويا للهول!.. إذ لم يجفّ اللحم عنه بعد، فأغمضت عينيها، وهي تسدّ أفواه المتكلمين، لترجوهم أن يكفّوا: لا أستطيع سماع هذا، أمان، جانم، أمان!.

بانطلاق القطار، أعطت العجوز الطفلة ابتسامةً صغيرةً أخرى، وأسبلت للنوم جفنيها!. لكن طائفة من الأحداث احتلّت ساحة الخيال!.. فهزّت رأسها، واسترسلت مع الذكريات!.

مرةً، كانت مسافرة إلى اسطنبول، في قطار، وعلى هذا الخط بالذات. كانت شابةً، ومعها طفلان صغيران.. ما حدث شيء لا ينسى!.. حمل الفلاحون الخراف والدجاج إلى مقصورة الركاب، وانطلق القطار ينفث هذا الدخان الكثيف. لا تعرف، هل هو من حريق الفحم، أم من زيت النفط الثقيل. ثم فجأة، صدر صوت المفتش يجعر في صراخ مجلجلٍ، حاملاً للركاب التوبيخ!.. قال لهم، إنه لولا يخاف الله، لرماهم وما معهم خلال النافذة!.. ولكن، عليهم أن يأخذوا، للمرة القادمة، جانب الحذر، أشدّ الحذر، لو عادوا لفعلتهم هذه، فسوف يرميهم وما معهم بلا رحمة، حتى لو صبّت عليه السموات والأرض اللعنة والغضب!. أمان، جانم، أمان!.

ألقى خطابه المدوّي وانصرف!.

وتسلّل الدخان الثقيل داخل المقصورة، حتى أشرفت الطفلة الصغيرة على الاختناق، فأخرجت لها منديلاً وضعته على أنفها، مادفع الطفل كي يصرخ غيرةً، فاستبدلت أنفها بأنفه. ثم انتبهت إليه يضحك من تحت المنديل.
كان القطار قد أسرع، وهبت ريح تطرد الدخان، فوضعت الأمّ المنديل على أنفها، تدرأ رائحة روث الحيوان المتساقط!.
وغفت..

المحطة التالية..
صاح الديك في رأس العجوز، فاستيقظت لتجد القطار يطلق الصافرة، فيما يخفف السرعة استعداداً للوقوف!.. فأعطت الطفلة ابتسامةً صغيرةً، ولاحظت، هذه المرة، أن الطفلة بدورها تبتسم!.. انتبه الطفل لذاك، فانقضّ على شعر أخته يشدّه، ما جعل العجوز تطلق نظرةً صارمةً، فأرخى الطفل يديه!.
مازال الوالدان يثرثران همساً!..

وانطلق القطار..
أوشكت العجوز أن تغفو، حين خطرت لها الذكريات، مرة أخرى!،
كانت في رحلة شهر العسل، بالقطار، وعلى هذا الخط بالذات. امرأة جميلة، في صحبة رجل متيّم، ذي شارب أسود معقوف إلى أعلى، وعينين ذابلتين، يتبادلان نظرةً ولهى، وقد بداعلى وشك السقوط في المحظور، بالكاد يمسك نفسه!، فما المخرج من تلك الورطة؟!.. فكرت في أن تثرثر في مسألة ما، لعلّها تصرف اهتمامه، لكنه لم ينصرف، ولم يغادر الصمت لحظةً!. اقترب برأس ضائع، وشفتين غليظتين، وهمّ بها!.. بسرعة رفعت يدها دونه، وراحت تدفع.. وتدفع!..
الآن، في اللحظة!.. كان القطار ينهي سرعته بقوة، ما أحدث صدمة، ودفع العجوز إلى الأمام، فاستقبل الرجل جسمها الضعيف، قبل أن تسقط أرضاً، وراحت الطفلة تصرخ!..
هدّأ الرجل من روع زوجه. وقال لها، ربما عجلات القطار تحطّمت!.

قالت العجوز للطفلة:
لا تخافي يا حلوة!.. وقف القطار، لأن النعاج الصغيرة تقطع السكة!.. عدّي معي، واحد.. إثنان.. ثلاثة!..
وسار القطار!..
حدّقت الطفلة في العجوز بدهشة!..

ساعة الوصول!..
ولاحت بساتين اسطنبول!.. فالمباني المبعثرة المغبرّة، بقايا ماضٍ بعيد. أمّا الضاحية فقد انتظمت شوارع عصرية، ومخازن، وشاراتٍ ضوئيّةٍ للمرور!، وصاح القطار!. المحطة الأخيرة!..

لحظة سكن المحرّك، نهض الركاب للهبوط، فأعطت العجوز الطفلة ابتسامة الوداع، وانتظرت أن تفرغ المقطورة. لتهبط في هدوء!.

في بهو البناء، ألقت نظرة هنا وهناك!.. هذا كنف المحطة، كما كان تقريباً!.. الأبواب، النوافذ، الأقواس، والزخارف!.. لكن أشياء استجدّت، أيتها العجوز!.. فلوحة الإعلانات لم تكن موجودة، ولا الأرقام الدوّارة، ولا قضبان الحديد!.. انتبهت إلى طوابير الناس، أمام شبابيك التذاكر، وقد حشروا بين القضبان المتوازية، يفصل ما بينهم وبين الموظفين زجاج سميك!..
بينما تكتشف العجوز المكان من جديد، اصطدمت ببعض المارّة المسرعين، وقدمّوا لها اعتذارهم، لكن العجوز ردّت بلهجة من يعتذر، ويقبل له اعتذاره "تشكرات أفندم" !..

ولكن الناس حقيقةً تكاثروا إلى درجة مهولة، أيتها العجوز!..
وهم، مع كثرتهم هذه، في شغل شاغل، سراعاً يمرقون!.. فلا يلوون!..
العجوز تعرف أن في المشي لذةً لا يعدلها شيء في الوجود، تمنح التأمّل في خلق الله، والمتعة. وهم، المساكين!.. يفقدون تلك النعمة!. يرتطمون بعجوز بطيئة السير فلا بأس!.. ولكن، هل ينظرون فيما حولهم حقاً؟!.. تشكّ العجوز في هذا!. إنها تعرف المدينة وأهل المدينة!.. إنّ لها ابناً طبيباً هنا، وأقارب، يزورونها في

المناسبات، ويعرضون ما عندهم من هموم، فتهزّ رأسها عجباً!.. لا تعترض، وإلاّ وجدت من الحجج والذرائع شيئاً لا ينتهي!. إنها على درايةٍ بأنّ الزمن قد تغيّر، وأن في جعبتهم آراءَ معقولة، لكنها لا تفهم لم لا يريدون التزحزح عنها قيد أنملةٍ؟!. أما وقد حاولت مراراً أن تثنيهم عن ذلك دون جدوى!، وكاد رأسها يطقّ، وصلت أخيراً إلى حلّ، أن تهزّ رأسها، وتردّد عبارةً جامعةً مانعة: "أمان، جانم، أمان"!.

ولكن، تحدّث العجوز نفسها، كفاك تخلطين ماضياً بحاضر!.. انظري أمامك.. هذه المرأة العجوز مثلاً!. إنها في سنك، وقد أصابت حظاً من التمدّن، لتضع قبّعةً عصريةً على رأسها، ونظاراتٍ طبيةً، وتلبس معطفاً إلى أسفل الركبة، وحذاءاً واطياً، فما المشكلة؟!.

لاحظت عجوز المدينة عجوز الريف تمشي الهوينى، وتصبّ عليها نظرةً فاحصةً!. فأبطأت لها، وعند التقاطع، أفشت عليها السلام:

-كوزال.. إنشاء الله؟!..

أجابت عجوز الريف:

-تشكرات أفندم!.. الحمد لله، خوش كوزال!..

شيّعت عجوز الرّيف عجوز المدينة التي تبتعد، بدهشة. انتبهت لحذائها، إنه مثل حذائها تماماً، واطئٌ هادئٌ مريح!.

الثّياب، من حولها، يثبن بشعر ملقىً على الأكتاف، وبالكعب العالي، مطلقاتٍ نقراً يرجّع الصّدى، وعطراً يفوح!..

فهزّت رأسها!.

العجوز تحب العطر، لكنها لا تفهم، لم يجب نشره على الملأ؟!.

لا تعرف أنواعه، وما استجدّ للموضة!. كانت تحب المسك البكر، وأوقفت هذا الحب، يوم علمت أنه يأتي من الغزلان، وصار نادر الوجود، كونها أصبحت نادرة!. استعاضت عنه بالورد الذي يزهو من حولها، ويربو!.

أقرباؤها يحملون قوارير العطر، وأطفالهم يشرحون لها، هذا للنساء، وهذا للرجال!. تقول لهم: يعني، هذه مملكة النساء، وهذه مملكة الرجال!. فماذا للعجائز؟!، والأطفال، ياصغاري؟!. يقولون: لا شيء!. فتقول: بلى!. اخرجوا إلى الحقل وشمّوا!.

يشعرون أنها تسخر منهم، أو تلقي عليهم نكتة!. فينطلقوا ضاحكين!.

هذي هي ساحة المحطة!..

كما كانت!.. بل ازدادت زحمةً!.. تغيّرت أشكال الناس.. أزياؤهم.. أصواتهم!.

نعم!. وها هي التروماي مازالت تدقّ الأجراس أيتها العجوز!. لم يختلف صوتها كثيراً!. أصاخت العجوز للرنين المنطلق بمتعةٍ، لكن سائقي سيارات النقل قطعوا عليها تلك النشوة بالصراخ:

- تفضلي ياعمة!.. أين تقصدين؟!..
- عمة.. يا عمة!.. في خدمتك؟!..
- سيدتي!.. سيدتي!.. تفضلي!..
- أين يا جدة تذهبين؟!..

خاطبت العجوز السائقين المهذبين جميعاً قائلةً لهم، إنها سوف تمشي قليلاً.

- حسناً يا ولدي!.
- بوركت ياسيد!.
- سأمشي، سأمشي، تشكرات!.
- ليحفظكم الله جميعاً!.

أرسلت نظرةً إلى الجسر الطويل المعلّق!.

ويا للهول!. مازالت جدائل الفولاذ المشدود تحمله، أشبه أن يكون باخرةً عملاقةً، مشرئبّة الصّواري، تأخذ من الغيم وتلقي!.. والنهر الراكض تحته، صوب المسافات البعيدة، يلهث في صليل دفق المياه، كونه مستعجل الوصول هناك، عند مستنقع السدّ!. سوف يصل لابدّ، وينفخ الضفاف، صاعداً سفوح الجبال، إلى الأحياء والأموات!.

ترنو إليه العجوز، وتهزّ برأسها!.

ومع ذلك، يبدو الجسر عجوزاً أنهكه التعب، يحطّ كتفيه على ضفتين، ويدبّ الناس عليه دبيباً لا نهاية له. هابطين تحت إبطيه، فصاعدين الدهاليز والسلالم!.
اخترقت العجوز الحشد في عناء!.. حيث أنساق باعة الرصيف، يصرخون لبيع الألعاب، والعطور، والجوارب. فاجتازت الممرات المكتظة صعوداً إلى المنصة، لتضع أوّل خطوةٍ لها على الجسر، في الهواء الطلق!.

وفي منتصف المسافة، وقفت تنبش خلائط الأشياء من جيبها الطويل!،
هذه هي السبحة.. وهذا هو السّواك.. حافظة النقود.. أزرار مقطّعة.. رزمة مشابك الشّعر، ومنديل الأنف القماشيّ!. ولكن، أين الوريقة الصغيرة، أيتها العجوز؟!.. قصاصة الورق!..
عادت العجوز لفحص الأشياء مراراً وتكراراً دون جدوى!.
وتمتمت:
ضاع عنوان الولد!.

أوقفت صبياً عابراً، وطرحت عليه أسئلةً:
- ياولدي!.. حماك الله، قل لي.. إن مشيت باستقامة هكذا.. فإلى أين أصل؟!.. أو إلى اليمين.. فأين أنتهي؟! أو اليسار.. فأين أصير؟!..

حدّق الصبيّ ياستغرابٍ، وقال للعجوز:
- ماذا تقولين ياجدة؟!.

قالت العجوز:
- يا ولدي.. أجبني، حماك الله!.. أريد تذكّر أسماء الأماكن، لقد أضعت عنوان الولد، ورقم الهاتف.. وكل شيء!..

قال الصبيّ:
- رأيت ورقةً تفلت منك ياجدة!.
- أين هي؟!.
- سقطت في النهر!..
- سقطت في النهر؟!.. ويح هذا النهر!.. يا ويحه!.. ورائي وأمامي؟!.. أي بنيّ!.. تشكرات.. امض في سبيلك، حماك الله!..

عادت العجوز القهقرى، عابرةً إبط الجسر بالدهاليز والممرات، فصاعدةً إلى رصيف الشارع!.

وقفت قبالة النهر، حيث رهطٌ من صيّادي السمك العجائز، قد أحنوا ظهورهم قابضين الصنانير بخيوطٍ مدلاّة، ينترونها من حين لآخر، فتخرج فارغة!..

هنا، في هذا المكان، وقفت ذات يوم، بصحبة والدها الشابّ!، كانت طفلةً صغيرةً، وشدّها العطف على هؤلاء المساكين. قال لها أبوها،يا بنية!.. الصبر، يعني لهم متعة انتظار المكافأة!. إنه جزءٌ من عملهم!. بعد أكثر من ثمانين حولاً، الآن، في هذا العمر!.. تفهم العجوز أباها أكثر، وتفهم ماذا يعني الصبر والعمل!، تمتمت في سرّها: رحمك الله يا أبتاه!..

سارت مسافةً، ووقفت ترسل نظرةً بعيدةً!..
ثمة عاصفة تجتاح عرض البحر!.. وترتجح السفن هائجةً ميّالة!.. فتخال العجوز أن المراكب توشك أن تغرق!..
ذات يوم، انهمك أبوها يشرح لها عن الريح العاصفة، فشبّه لها ذاك الجموح بامرأة عجوز، ما يقابل طفلة شبيهة بالنسيم العليل، من أين الطفلة والعجوز؟!.. كانت ساهمة تفكر، فأطلق ذراعيه خطفاً، جهة اليمين، ولمحاً، جهة الشمال: هكذا تمرّ العاصفة يا سيدتي الصغيرة!.. ومرّر كفّيه على شعرها في حنوّ بالغ: وهكذا النسيم!.. ثم أضاف: سيدتي الصغيرة!.. أثناء الربيع، والعصافير الجميلة تطلق الألحان، لا شكّ أنك تسمعينها، فأنت لست صمّاء، وترين قطع الغيوم البيضاء تزيّن السماء، لا شكّ، فلست عمياء، والحقول الملأى خيلاً وماشيةً!.. بينما

القطط الصغيرة عند رجليك، والكلاب من حولك، وأنت ترفعين هذا الأنف الصغير وتشمّين!.. فماذا تشمين؟!..
كانت تتابع يديه، اللتين تخفقان، في متعةٍ، فيما يطلق الصغير، بحركة تمثيلية رائعة، فإذا انتهى المشهد وجاء السؤال، أجابت بانفعال غير عابئةٍ: النسيم!.. فصفّق لها صارخاً في عرض الشارع:
برافو!.. سيدتي الصغيرة!....
الآن، تردّد جملة في سرّها: نسيم وعاصفة!.. طفلة وعجوز؟!..
أطلقت العجوز نظرة أخرى!..
صار للبحر ذراعان تحضنان المراكب. وهذا الرصيف المواجه، حيث ينتهي الموج الهادر المتكسّر عنده!. من هنا مرت، لم يكن الميناء قائماً بعد. كانت الشمس ساطعةً، وأشجار الحراج تحفّ بالشاطئ الأزرق المديد، بينما افترش المصطافون الظلال الرطيبة، وعلى الأغصان، فوقهم، أسراب العصافير، ترسل الغناء جذلى!. كان في يدها قطعة حلوى، فألقت فتاتاً تزاحمت فوقه الطيور!. كان السنونو يحوم فوق وجه البحر متهادياً يلطم سطح المياه!. ويدفع لأمواج. فألقت ما عندها للطيور، وركضت تركل زبد البحر المترامي في تحدٍّ عنيدٍ!.

تفكر العجوز!..
إنها تسمع الأخبار، والكوارث التي تضرب في أصقاع الأرض!..
تفكّر!..
نعم، كانت لنا الحرب، والمجاعة، وسفر برلك!.. ولكن، كان الناس أكثر بساطةً ورضىً!. كانت الأشياء واضحة!. ينطق السيّء بالسوء، والعاقل بالحكمة، كلّ واحد يعرف خصمه. اليوم، لانعرف!. اختلط الحابل بالنابل، وشاع الخداع، فضعنا، لم نعد نعرف لنا صديقاً من عدوّ!. الأقنعة على وجوهنا، والطمع في القلوب، والثقة ماتت!. يا رحمة الله!.

قطعت مسافة أخرى!..
من هنا مرّت وهي طفلة!.. ومشيا.. مشيا، أخيراً، قالت لأبيها، تعبت!. قال لها، نعم، ياسيدتي الصغيرة، وأنا كذلك!. كانا قرب مسجد السلطان أحمد، فيمّما شطره للراحة!.

تفكر العجوز!..
يعود القطار ساعة المساء، فأين تقضي الوقت حتى هذا الموعد؟!..
هزت رأسها للفكرة!.. مسجد السلطان أحمد!.

صعوداً درب التروموای، وقفت العجوز عند منعطف يلوي إلى زقاق خلفيّ، وقرّرت زيارة الحيّ القديم، لها ذكرى فيه، وهي تحبه!..

ولكن، يا أسفاه!.. كان، هنا، بناء جميل، عالي النوافذ والشرفات، يحيط به ممرّ خارجيّ، بسياج من الحجر المخرّم والنقوش، كانت تلفّ السلالم الطليقة قبالةَ فضاءٍ مفتوحٍ، لتلج الحرم الداخليّ. لم يعد للبناء وجود!..

وهذا بناءٌ تداعت جدرانه!. وهذا تهدّم!. وذاك رمّم!. القلاع والقصور مازالت قائمةً صلبةً، كما كانت، تقبع خلف الجدران الشامخة!.. حسناً، تهزّ رأسها، وترنو إلى الحصون شزراً!. وهذا يكفي!.. ستعود أدراجها إلى الشارع العام!..

وهنا!.. ياللهول!، تدفن البنايات الضخمة الطريق كلّه، لقد حجبت كلّ شيء!، وهي، مع ذلك، تبدو ساخرة مستكبرة!. تقرع التروموای أجراس مروراً فوق سكةٍ تفصل بين الضفّتين، أشبه بخطٍّ هدنة، وحكم يلهث بالصافرة خلف اللاعبين!.. وهذا حشد أرتال المراكب الجرّارة، منهمك في إطلاق الضجيج، والدخان الأسود!. يا رحمة الله!.

من هنا مرّا!.. يشبكان يداً بيد، على موعد مع الخيل، التي تختال مثاني وفرادى وهي تجرّ عرباتٍ مزدانةً جميلةً، وتنفض الغرّة على هاماتها يمنةً ويسرةً، فيما يحمّ بعضها من لجامٍ في فكّيه، ويرفع بعضها الصهيل الجميل!..

تسمع العجوز صوتاً قادماً من ذاك الزمن، وتنقر بعصاها جانب الطريق نقراً متلاحقاً نزقا!. كانت الدروب المحفّرة، وتتّقي بكفّ أبيها عثرات الطريق. هنا، وقف رافعاً السبّابة إلى جبالٍ ناهضةٍ في السّماء، وقال

لها: بيتنا خلف هاتيك الجبال، يا سيدتي الصغيرة!.
أين الجبال؟!..
علّقت العجوز نظّارةً طبيّةً!..
لا جبال!.. دونها الخرسانات الضخمة!.. وهذه!.. ما شاء الله!.. في محاولة، أشبه أن تكون رشوة، رفعت ألواحاً ضخمة من زجاجٍ عاكسٍ منمّقٍ، تعيد للناظر ما يراه قربه، وكأنه أعمى لا يراه!.

مازالت الرّيح تعصف في السحاب، فيلتحم في فضاءٍ محصور بين كفّتين. سرعان ما انفكّ غيوماً متقطعةً، سطعت خلالها الشمس. من ثم حلّت سحابة ضخمة غطاءً فوق النطاق كله، فتراجع الأمل بانقشاع الشعاع. وعندها، شعرت العجوز بالضيق، فاتجهت صوب الحيّ القديم ثانيةً!.

الريح هنا أكثر اعتدالاً. لكن عاصفةً قويةً راحت تفلّ الغيم، وتلقيه بعيدًا في الأقاصي، هناك، يرتصّ داكناً كثيفاً، ويطلق البرق عليه النار، فيأتي الرعد مدوّياً ومرسلاً الأصداء من كلّ جهة!.

وهنا، فوق العجوز، بات الغيم واهياً بعيداً عن مسار الشمس، ليسطع الشعاع من جديد، فاستقبلت العجوز بحفاوةٍ الدّفءَ الهابط، لكنها سرعان ما شعرت بالظمأ، وعادت إلى الشارع العام!.

وقفت أمام بقّالةٍ، تفكّر!.. لحظةً، ثم دخلت!.
لاحظت، من البداية، أشياءَ غريبةً تجري، وراقبت ما يحدث في فضول!.. ضمّ البائع كفّه اليمنى في قفّاز بلاستيكيّ، فيما علّق باليسرى ورقةً نقديةً ذات رقم له من الأصفار شيء لا يحصى، وقصاصةً بالمطالب!.. وثب إلى ثلاّجة ضخمة، واقتحم ركام البضائع، فأخرج مغلّفاً شفّافاً بسمكةٍ مجمّدةٍ مضغوطةٍ جاحظةَ العين. وانطلق إلى رفّ مقابل، فجاء بكيس مليءٍ بمسحوقٍ أبيض، لا تعرف هل هو ملحٌ، أم سكّرٌ أم طحين!، وآخرَ مذهّبِ مجهول الهويّة. فألقى الأشياء في كيسٍ فضفاضٍ. ولمّا يزلْ يذبّ الذبابَ عن ورمٍ له في الأنف، فما يكاد يطرد واحدةً حتى تحطّ أخرى!.
أخيراً، وقف خلف صندوق الصرف، ونقر عليه الأزرار، فامتدّ لسانٌ يحمل أوراقاً نقدية، أضاف لها ذات الأصفار، والتقط قطعةً معدنيةً صغيرةً!.

انتبهت العجوز إلى فتاةٍ مطرقةٍ، وكانتفةٍ ذراعيها تنتظر. لم ترفع رأسَها قطّ، ولم تنطق بحرف. لحظة رفع البائع صوته بالكيس الفضفاض، وقال لها: خذي!.. تناولت الكيس وهي مازالت مطرقة، فسارت كذلك باتجاه المخرج. ثم وهي تقطع الواجهة الزجاجية، حتى توارت عن العين كليّاً!.
انتبهت العجوز توّاً لصوت البائع:
- ماذا تطلب السيدة العجوز؟!.

أجابت العجوز فوراً:
- جرعة ماءٍ من فضلك يا سيد!.

حثّ الحانوتيّ الخطى بقفّازه البلاستيكيّ، واقتحم الثلاّجة الضخمة، فحمل عبوة ماءٍ بلاستيكيّةٍ شفّافةٍ، وعاد أدراجه، فقدّم العبوة، وراح ينقر أزرار الصندوق رافعاً صوته:
- مئتان وخمسون ألف ليرة!.. ياعمة!.

قالت العجوز:
- مئتان وخمسون ألف ليرة؟!.. لجرعة الماء؟!..

لم يجب البائع. لكن العجوز استغربت كلياً!.. لم تضف كلمةً واحدة!. للتوّ، أعطته ظهراً ، وسارت باتجاه المخرج. فيما ظلّ البائع رافعاً أنفه المحمرّ، ومشيّعاً العجوز المغادرة!.

في الشارع، كانت العجوز ترفع السبّابة في وجه المارّة، وتردّد:
مئتان وخمسون ألف ليرة للجرعة!.. ياعمة!..
مئتان وخمسون ألفاً.. ياعمة!..
فقط ياعمة!.

رفعت رأسها إلى التروماي العابرة، وهي تقرع الأجراس، لترى الشرر الوثّاب، يرسم، باحتكاك الذراع، مع سلك الطاقة الكهربائي، صورة آلةٍ كاتبةٍ، تلقي على السطر حروف النار، فتذهب الصفحة للزجاج العاكس، حيث الطابعة. وهناك، يبدو المشهد مجسّماً ضخماً!.
أشارت العجوز للترومواي العابرة، مرّي عليك السلام!.

وسارت مسافةً، ثم وقفت عند رواق عريض!..
شاشات تلفزيونيةٌ مصطفةٌ في نسق، وأمام كلّ منها رتلٌ من نساءٍ ورجالٍ. في المقدّمة، رجلٌ يعمل نقراً على الأزرار، ويرفع نظرةً إلى الشاشة، من حين لآخر، فخرجت له رزمةٌ من ورق المال، لتستقرّ في حافظة النقود، ثم في الجيب، دون حاجةٍ ما لفحصها، إنها الثقة!.

عاد للعجوز ملفّ الذكريات!..
كانت فتاة شابة!.. ولأمر ما، جاءت ترفع شكوى إلى الحكومة. قال لها الموظف، اطبعيها عند كاتب العرائض. فهبطت إلى الساحة، أمام مبنى السراي، حيث يقبع العجوز كاتب العرائض على كرسيّ واطئ، وراء الآلة، فدار جدلٌ بينهما. يريد العجوز معرفة التفاصيل الدقيقة. قال لها، يا ابنتي، لا أريد للموظف البليد أن يصرخ في وجهك، ويسأل عن الحمار الذي سطّر لك الشكوى. ثم يأمرك بالرجوع إليه، يعني إليّ، لاستبدالها بأخرى، كونه هو الحمار، ولم يفهم المعنىّ!.

تذكر العجوز، أنها أجابت كاتب العرائض عمّا أراد، وبنفس راضية، عادت إلى الموظف، فأسلمته الشكوى، حيث راح يقرأ النص بصوتٍ عالٍ ويهزّ الرأس، دون أن يستفسر عن كلمةٍ واحدة!.

كذلك عادها طيف زوجها المحارب، وهو يصف، في رسالة إليها، مشهد استلام الطعام، حيث رتل الجنود، وعند الناصية، خفيرٌ ساذجٌ بدين، يوزع حصّةَ كلّ واحدٍ بضربة مغرفٍ، فيما يعطي النصائح!.. هيّا!.. انفخوا كروشكم واسمنوا، لتجلبوا لنا النصر!. هيا، تقدّم!.. تعال الذي بعده!. ولكن، ما وجه الشّبه في هذا كله، أيتها العجوز؟!.. الطبق، أم العريضة، أم حافظة النقود؟!.. كانت الحرب قد وضعت أوزارها تاركةً البؤس، والمجاعة!. ومكان الحبيب فارغاً، حتى إن الذكرى ذاتها اصفرّت ورقاً وكلاماً!.. لشدّما أدمعت عيناها، وخفق القلب!.

أمام هذا المشهد الكسير، وعينيها الدامعتين، والوقفة التي استطالت أكثر مما يجب، حيث صار آخرُ الرّتلِ أوّلَه، اقترب منها أحدهم، وهو يراها على تلك الحال، فبحث عن قطعٍ معدنيةٍ صغيرةٍ في جيبه. ثم قال لها:
- تفضلي يا سيدتي، اقبلي مني هذه الحسنة!.

نظرت العجوز إلى الرجل، وإلى يده، مستغربةً مرتبكةً!.. ما لبثت أن قالت له:
-أنا؟!.. لا.. لا.. يا ابني!.. معاذ الله!..

ولكن، يجب أن تمشي أيتها العجوز!.. ما وقفتك هنا؟!.. يا للعجائز!.. ها أنت أعطيت عنك انطباعاً سلبيّاً، أنك المتسوّلة!.. وتنتظرين أحداً ما، في مدخل البنك، كي يحشو كفّك بقطع الحديد الصغيرة!. هيا، إذاً، تحرّكي!.
فاستدارت العجوز للتوّ، وهي تحثّ الخطى بعيداً!.

ما لبثت أن أبصرت فتاتين بثوبين قصيرين، مرّتا تنظران إليها، فلوت العجوز معهما إلى الوراء، وشيّعت منظراً يطوي ساقاً وركبة. عندئذٍ، طافت عليها رؤى، وصور!.. أرتال الصفوف، وتكتكة النقر على الأزرار، والركبة طيّاً وفتحاً، وجيب الآلة اللّافظ ورق النقد!.

مازالت تصعد الحيّ!.
وأحسّت بالتعب، فوقفت عند سور حديقة، تطرف الأهداب، والريح تدفع أغصان الشجر لترمي مزيداً من أوراق متقصّفةٍ في الممرّات، فيزحف الركام إلى ركن حصين، ويزداد ضخامةً لا يتزحزح. فإذا هبّت ريح قوية سلخت جزءً من أعلاها، تاركةً الرّكام يحمّ ويرتجّ في حفيفٍ كالصليل.
هناك طفلان يركضان ويضحكان، التفتت إليهما العجوز، وألقت ابتسامةً صغيرةً، ثم واصلت السير في طريق الصومعة!.

للعجوز مقام هنا!.
والآن، هالها الأمر، فمنذ لحظةٍ كان الصرح خيالاً لذكرى!، ثم فجأة، استدار دورةً عابثةً، وعاد قائماً حيّاً، برواق صغير مائل السّقف، وثغر صاعدٍ ببضع درجاتٍ نحو المصطبة، فالمنصّة، من جديد. هنا كان الأطفال يلعبون!. وانضمّت إليهم طفلة تثرثر ببضع كلماتٍ وتصرخ، كأنها تعرفهم منذ سنوات!.
ناظرة في شرود، هنا وهناك!.
هنا، اقتعد أبوها!. مازالت تحفظ جلسته وشكله!.
أخيراً، حمل نفسه ومضى، فلم يرجع!.
بلى!.. تراه في الحلم.. في هيئةٍ بهيّة، يلقي إليها كلماتٍ مازحةً، ويقول، كيف الحال؟!. أمازلت طفلةً خبيثة؟!.. يشوّر بيديه بالحركة المعتادة، ويضحك قهقهةً، ثمّ تبدو على محيّاه قسماتٌ جادة ترسم الوقار!. لكنه طفلٌ كبيرٌ، هكذا كان ويبقى!. قالت له ذاك دون حرجٍ، وسوف تبقى تقول!.
تفكّر!..
هي التي تركض في العمر وتكبر!. صارت أمّاً وجدّة!. أمّاً لطفلة صغيرة تحبو في الخيال، وجدّة لأخرى صار لها أطفال من دمىً تلعب معهم وتضحك!.. كانت طفلة مدلّلة، دون شك، وظنّت أن الحال تدوم، وأن ما من شيءٍ خُلق إلاّ لأجلها!. اليوم، مازالت الطفلة تكبر عوداً على بدء، وتطرح الأفكار البالية، لتدرك أنها ما خلقت إلاّ لأجل طفلين غريبين، وحقلٍ يغرق، وبيتٍ مهدّد بالزوال، وقطيعٍ لا تعرف إلى أين تسوقه!.

أمّا السيد، الممدّد في المقبرة، المهدّد!، فمازال على سفح الجبل، في كنف الجلال، والصمت الأبديّ، لتذهب بطوق الورد إليه، صباح كلّ جمعة، فتلقي عليه السلام، وتجلس على طرف المصطبة، تدفع عنه السكون الثقيل، بما تقرأ من قرآن. فلا شيء يعكّر صفوه سوى الغمر. والغمر آتٍ لا محالة!. ولسوف تبقيه في الماء مهما حدث، إنها ترفض نقله!. ويا حبذا لو صارت إلى جنبه قبل تلك اللحظة، إذاً، لكانت سعيدة، وكان الماء مرسالاً بينهما!. عندها، تنضمّ إلى السكون السرمديّ، بانتظار الله، غير عابئةٍ بالزمن، طال الدهر عليها أم قصر!. آخر المطاف، ستنهض وتلتقي أباها!. ويداً بيد، إلى الله!. قال لها، سنحشر يومئذٍ حفاةً عراة!. حسناً، ستنظر في السماء!.. ولكن كيف ستجد نفسها؟!.. طفلة أم شابة أم عجوزاً، كحالها اليوم؟!. لم تسأل أباها عن ذلك؟!.. كانت طفلةً، وظنت أنها ستبقى طفلةً، في الحياة الدنيا وفي الآخرة!. ولكن، في طريقهما إلى الله، بعد فترة الموت هذه، ربما تسأل أباها عنه، ما شكله؟!. ما هيئته؟!. فهل سيردّ عليها مكرّراً ما ردّد من قبل، كما لو أن شيئاً لم يحدث؟!. قلت لك، يا سيدتي الصغيرة!. هل أعرف أكثر ممّا تعرفين؟!. ستقول له ما كانت تقول، يعني، سؤال في سؤال!.

وإن لم يحدث، وطوى الغمر كلّ شيء!.. ستواظب على زيارته صباح كلّ جمعة!.. تقف عند شاطئ البحيرة حاملةً طاقة الورد، وتقول للريح والماء، خذاها إليه!.. فإن أمكن لها أن تذهب في مركبٍ، ستجثم على سطح الماء فوقه، وتلقي السلام، ثم تقذف الورد، وتقرأ ما تيسّر!.
نعم، سيبقى على السفح ما بقيت، ولن تنساه!.. ترك لها خيراً كثيراً!، غير المال والجاه والنبل!.. ترك الحكمة الغرّاء!. وبالحكمة وحدها استطاعت الصبر على الشدائد والمصائب والأهوال!. فأيّ شيءٍ يضاهيه؟!.

هنا جلسا، في هذه النقطة، ووضعت رأسها الصغير في حجره. كان يقترب من الصومعة جملٌ ضخمٌ مهيب، عليه جلّ من لبّادٍ محلّى بالذهب، وقد امتطاه رجلٌ فارع القامة، طاول رأسه سقف الرّواق العالي. ثم فجأة، مدّ البعير رأسه الضخم، بعنقٍ طويلةٍ، وعينين واسعتين فوقها تماماً!، عندها، فزعت أيّما فزع، وصرخت طامرةً رأسها في حضن أبيها!.

بودّها لو أعادت للجمل اللطيف اعتباره!.. لقد اقتنعت تماماً، وبعد فوات الأوان، أن البعير ما أراد إيذاءها قطّ!.. ما أراده، هو أن يبادلها قبلة الصداقة وحسب!. كان هذا رأي أبيها، وتريد اليوم تصديقه. ما كانت تخشاه، أنها لو قبلت بهذا التفسير، واستسلمت لقبلة الجمل الجلف، فأين عساها تكون؟!.. لاختفت بين مشفريه الغليظتين!.. إذاً، فأيّ قبلة هذه، وأيّ صداقة؟!.. ويضحك أبوها!.. على كلّ حال، ربما جاء ردّ اعتبارها للجمل متأخراً جداً، ودون جدوى!.. أليس كذلك، أيتها العجوز؟..
تهزّ العجوز رأسها !..

تلوي التروموای بانحناء السكة، وتقرع الأجراس، فيدغدغ الرنين سمع العجوز!.. العجوز تحب التروموای!.. والتروموای، بدورها عجوز أيضاً، وإن أثقلها يافطات الإعلان، لمياه غازية، أو مساحيق الزينة!. فإذا أصبحت بائسة، تفهم العجوز بؤسها. تلك أسرار العجائز، لا يعرفها أحد غيرهنّ!..
أومأت للتروموای العابرة، أن مرّي!.. عليك السلام!.

في عهدها، كان للترومواي شأن عظيم!.. غادية، رائحة!.. تحمل العمال إلى أعمالهم، والتجّار إلى محالّهم. ما من أحد فكّر ذات يوم، أن في وسعه الاستغناء عنها!.. جمعت قلوب الناس جميعاً واجتمعت فيها، آخذةً بأيديهم إلى حلم جميل، بإيقاع يجلو عنهم الهمّ والتعب!. أما الخيول، وقد كانت مختالةً بجلّ على الظهر بديع الشكل، وأجراس معلّقة، وصهيل رخيم لمن يطرب. فإذا اقتربت من السكة، وقفت لها أم حنون، كي تمرّ في سلام!. اليوم، هل تقف الترومواي لأحد؟!.. وأين الخيل كي تقف؟!.. أين البعير، أين الحمير؟!.. لا شيء من ذلك!. تهمس العجوز في سرّها، وتتقر الرصيف نقراً متلاحقاً نزقاً!.

ألقت نظرة إلى الأمام!..

ثمة امرأة افترشت جانب الرصيف، لابدّ أنها قادمة من الريف!.. شكلها بالزيّ الحريريّ المزركش، والثوب الطويل، وعصابة الرأس، ما يؤكد ذلك!. مثلك أيتها العجوز!.. نساء المدينة لا يفعلن هذا بأنفسهنّ!.. لم يعتدنه!. ولربما اعتبرن الجلوس هكذا على قارعة الطريق ضرباً من العار، أو فضيحةً!. لا تقدم امرأة المدينة عليه أبداً!. امرأةالريف لا يخطر لها شيء من ذلك. إذا ما أرهقها التعب، حطّته على الأرض فوراً، ورفعت الرأس إلى السماء. عندها، الأرض والسماء صنوان، هي معهما في عقد مقدّس أبديّ!. لا تملك الإنفلات منه قيد شعرة!..

ولكن، مهلاً أيتها العجوز!. تفترضين شيئاً ما وتبتعدين!. لربما كانت المرأة مريضة، أو كانت بحاجة لشيء ما!. إذاً، تمهّلي لتعرفي السبب!.

- إنشاء الله خيراً، يا ابنتي!. مريضة؟!.
- نعم يا عمة. قعدت للراحة قليلاً.
- لا حول ولا قوة إلاّ بالله!..

جاست العجوز بكفّها على رأس المرأة، وافترشت الرصيف معها، وهي تكفكف عبرة. دون مقدماتٍ، راحت تطرح مسألةً، ما أدهش المرأة الغريبة، فأصاخت لها السمع باهتمام!..

قلت له، يا بنيّ!. خذ عيادةً لك في القرية!. ها أنا أضعت العنوان، وأضعتك!. آهٍ له، وآهٍ منه!. ماذا فعلتُ؟!.

- هل ابنك طبيب ياعمة؟!.
- نعم، هو كذلك!.
- لو سألته عن مرضي!..
- أضعته يا ابنتي!.. أضعت العنوان!..
- لم لا تعيشين معه؟!..
- والشياه، والدجاج، والكلب، والبقرة، والأرض التي تركها أبوه؟!. وعمرنا الذي مضى؟!، فضلات؟!. نرميها للزبالة، ثم نمشي؟!.

انتظري!.. كلّ شيء سيغرق!.. عاجلاً أو آجلاً!. وأمنيتي الوحيدة، أن أموت قبل هذا، إذاً، لارتحت!. السيد الطبيب يردّد ما تقولين!.. نعم، كان هذا ذنبي!.. أنا التي علمته، وقلت له، أكمل في المدينة!.. فانتهى يسخر من أصله!. يا للمدينة!..

قال لي مرة، القرية!.. القرية!.. وماذا في القرية؟!.. الخرائب؟!.. سيجرفها السدّ، ونرتاح!.. صرخت فيه، خرائب أيها الضائع!.. وبّختة أشد التوبيخ!.. دونك!. أنت الذي تحتقر موطنك يا ولدا!. وكان بدوره يصرخ!.. ويصرخ!. طالما شعرت بالجرح، يا ابنتي!.. قلت له، تعال، هنا، تزوّج واشتغل يا ولدا!.. ألا ترى إلاّ الخرائب؟!.. ألا ترى الجمال؟!..

أراه مرة في العام!.. بالله يا ابنتي، ما عساها تقول أم لابن تراه مرة في العام؟!.. ستسأل عنه، أما وجدت لك عروساً، يابنيّ؟!.. راح يصرخ!.. هل تحسبين الفتيات كومةً من البطاطا يا أماه؟!.. ماذا أقول بعد؟!.. السكوت!.

- أما عندك غيره يا عمة؟!..
- بنت متزوّجة!.
- هل تزورك؟!..
- نادراً ما تفعل يا ابنتي!.. إنها بعيدة!.. وفي ضائقة. بلادهم تمرّ في المآسي!.. أما تسمعين الأخبار؟!..

زوجها القوقازيّ. تاجر السجّاد، الغنيّ، كان يأتي إلى استانبول موسم التجارة!. بعدها، لا أدري ما حدث، تراجع شأن التجارة، وقلّ السّفر!.. أخيراً، انتهى يشكو من التكاليف، والضرائب، وقطاع الطرق، والجمارك!.. وكل شيء!. ثم نزلت نازلة، فترك السفر!..

آه يا ابنتي!.. اتركي الناس في حالهم!.. لكلّ واحدٍ همّ يكفيه!. إن تسمعي هموم الناس تهن عليك الهموم!.

قلت لهم، تعالوا عيشوا معي يا مجانين!.. ما رأيت مثل زوجها يخشى الغربة!. قال لي، وبيتنا؟!.. وأهلنا، وأرضنا؟!.. كيف نترك هذا يا عمة؟!.. لمن؟!.. لم لا تعيشين مع ابنك أنت؟!.. وهو منك على مرمى حجر؟!.. فما عساي أقول؟!.. نعم!، على مرمى حجرٍ!.. هززت له رأسي!.

- وزوجك يا عمة؟!..
- راح في الحرب!..
- آهٍ!.. يا لي من امرأةٍ هبلى تتكأ الجراح!..
- لا تقلقي يا ابنتي!.. لا يهمني!.. تصالحت مع الأقدار، وجهّزت نفسي!.. أنا راحلة، في طريقي إليه!.
- بالله عليك يا عمة!.. أخبريني عن جيلكم، هل عاش البؤس، كما نسمع؟!..
- اسمعي يا ابنتي.. نعم، كان الناس فقراء، وماذا في ذلك؟!.. كنا نؤمن بالحكمة التي تقول، الفقير فقير النفس!.. سأقول لك شيئاً لا تنسيه أبداً، ما الفائدة، لو ربحت العالم كلّه، وخسرت نفسك؟!..

ورفعت العجوز عينيها إلى السماء!..

بزغ قرص الشمس عند طرف الغيم العالي، ولم تزل الريح تدفع السحب الوطيئة الصغيرة، في اتجاه واحد. فهذه جعلت تحلّ يداً من أمٍ راكضةً إلى أب، وتلك لاحقة أختها، وأخرى تجرّها الجدّة في حزمٍ، فلا تجد لها مفرّاً!.

شعرت المرأة بأن العجوز تحمل همّاً، أو ربما هي شاعرة تقرأ الأفلاك والغيب!.. يبدو هذا في حديثها وعينيها!. حاولت تتبع العجوز، لكن العجوز أطرقت، وتبسّمت، ثم خاطبت المرأة:

- عن أيّ شيء كنا نتحدث، يا ابنتي؟!..
- ربما عن الصبا!..
- عن الصبا؟!.. تجعليني أضحك، يا ابنتي!.
- لم لا؟!.. الصبا فرح وأمل!.
- فرح؟!..
- نعم!.

ابتسمت العجوز، والمرأة تضحك عالياً!.

تفكر العجوز!..

ماذا تريد المرأة؟!. هذا استدراج، فإمّا أن ترضخ له، أو تحمل حالها وتمشي!. أما وهي بدأت تحسّ بومضٍ دافئٍ خفيّ، يشدّها إلى ماضٍ، كاشفاً لها ساحة الخيال، فهي حيرى!. مازالت الغيوم تحثّ الخطى وتقول، هيا!. والريح تطلق الصفير!.. أما العواصف، فتهوي بقبضة صارمة، فوق رؤوس الشجر طوراً، وطوراً على ستائر المحالّ!. والعجوز أمام خيار صعب. ثم لو أنها قررت مجاراة المرأة، فلا تعرف بعد، أيّ ماض تريده!.. لقد اعتادت التحدّث أمام صاحباتها العجائز دون حرج!. ولكن، الآن، ماعساها أن تفعل في عجالة، على قارعة الطريق، تحت هذا القصف السافر؟!.

ولكن، لم هذا الحرص كله، أيتها العجوز؟!. هل تجدين الحرص فيما حولك؟، في عصف الريح، وقصف البرق والرعود؟!. الآن، تتفقين الوقت شمالاً ويميناً بانتظار القطار، فما المانع؟!. تحدثي في أيّ شيء، وكما يحلو لك!.. لم التعقيد في المسألة؟!.. أو بكلّ بساطة، اسأليها عمّا تريد!.. لا شيء يدعو للحرص والحيرة. كوني أنت، كما أنت.. فأنت أنت!. لا تستطيعين خلق نفسك من جديد!. كوني أنت، وأمام الناس جميعاً. افترضي الطيبة فيهم والبراءة!.. لا شيء غير!. ثم اتركيهم لأنفسهم يقاضونها. سترين!.. مهما أرادوك إلى جانبهم، أو صورةً عنهم، هم ليسوا كذلك، في قرارة أنفسهم!. يريدونك مختلفة، هل تفهمين؟!. ألا يملّون التماثل، ويبحثون عن شيءٍ خاصٍّ بهم، فيقطعوا البرّ والبحر، كي يعيشوه، أو يروه؟!. هل تفهمين؟!. ثم هل عندك ما يخجل؟!. تحدّثي، ولتقبل منك ما تقبل، أو ترفض ما شاء لها الرفض!.

أخيراً، قالت العجوز:

- عم تريدين الحديث يا ابنتي؟!.
- عن أيّ شيء يا عمة!..عن الذكريات!.. والفرح، عن أيّ شيء.. أنت حرة!.

-تريدين الفرح إذاً!.
ولكن يا ابنتي، كيف نفصل الحياة، بين حزنٍ وفرح؟!. هل هذا ممكن؟!. مرّت الحوادث بعضها مع بعض!. مثل هذا الفضاء، فالشمس تارةً، والغيم تارةً!. مثل العواصف، وهذا البحر الهائج!. وما فيه، من لؤلؤ، وأسماكٍ، وحيتان!. مثل سجادةٍ منمّقة!. عندما اقترب موعد ابنتي للزفاف، أرادت أن نترك لي ذكرى، وتغادر، هل تعرفين ما طلبت منها؟!. كانت حانكةً بارعة، فطلبت سجادةً!. ماذا تريدين فيها؟!. قلت لها، ارسمي ما تشائين، ولكن ضعي الطائر الحرّ على كلّ زاوية!.
للطائر الحرّ حكاية عندي!.. هل تحبين سماعها؟!.
- نعم، يا عمة!.. تفضلي!.
- حسناً!.. في كلّ موسم، كانت تعبر الطيور المهاجرة، واعتدنا على واحدٍ فريد، يغرّد خارج السرب، يسمونه الطائر الحرّ. يبقى في الديار بضعة أيام، يحوم فوقنا، على الأسطحة والحيطان والشجر!.. كل عام!.. نلقي له قطعة اللحم، فيما هو على علوّ شاهق، لنرى كيف ينقضّ في لمح البصر!، مشهد يخلب الأنظار!.
أما الصيادون الزعران، فلا يتركون شيئاً من شرّهم، دابةً كان أو طيراً!. جعلوا منه تجارة رابحة!. فهم وراءه!. وهناك، ماذا يفعلون؟!. يروّضونه، ويرقمون عصابة على عينيه، لا يرفعونها إلاّ لينقضّ على فريسة. والمسكين يصطاد، ويصطاد، ويعود للأسر من جديد!. يسلبونه اسمه ومعناه!. لم يأبهوا لاحتجاجنا، حتى اصطدمنا بهم، ورمونا بالبنادق، كما فعلوا بالطير والحيوان!. قلنا، هل أصبحنا في عداد التجارة أيضاً؟!. أوقفوا العابثين عند حدّهم، واستطعنا!.
لكن المشكلة لم تحلّ، أخذت شكلاً آخر!.
فوجئنا ذات يوم بقافلةٍ، من سياراتٍ فخمة، ورجال عليهم القدر والقيمة، مصطحبين الخدم والحشم والكلاب المدربة الضخمة!. قالوا، إنهم يصيدون خنازير بريّة، فسمعوا عن وجودها في أرضنا. باركنا لهم سعيهم. فقد أتلفت لنا المحاصيل والزرع، وضقنا ذرعاً بها!. قلنا، الحمد لله، سوف نرتاح!. أبيت إلاّ أن ينزلوا عندي، وفرشت لهم سجاد الحرير، عادتي مع الأشراف!. لكنني قلت في نفسي، أيتها العجوز، هل تصدقين هؤلاء الأشراف، وبحثهم عن صيد الخنازير؟!، مع هذه القافلة الفخمة، والثياب المزركشة، والخدم، والحشم، والكلاب المدربة؟!، لربّما كان في أرضنا كنز، أو جاؤوا لشيء آخر!. إذاً، انتظري، لتعرفي السبب!. قلنا لهم، خذوا أولادنا حتى يدلّوكم على الكهوف!.. قالوا، لا حاجة لنا، عندنا كلاب شاطرة والحمد لله!. عندكم كلاب شاطرة والحمد لله؟!. إذاً، هيا!.
ويا ابنتي!..
مضت بضعة أيام والأشراف، بقطيع الكلاب، التي في حجم البغال، لم تقع على خنزير واحد!. ماذا؟!.. وانتبهنا لهم!، يبحثون عن الطيور الحرّة!. فوجئنا بذلك، وراعنا الأمر!. أفرغوا لهم العجلات يا أطفال!. واستقبلوهم بالصّفير والزعيق، لكم جائزة!.
في المساء، حزموا الحقائب بآذان مدلاّةٍ، وارتحلوا!.
قلت لهم، وأنا أطوي السجّادة على طيوري الحرّة، آهٍ، إذاً، وا أسفاه!، يا شباب!.. لم تعثروا على خنزيرٍ واحدٍ؟!. فظلّوا صامتين، وغادروا يجرّون أذيالهم، فلم يرجعوا أبداً!.

انتبهت العجوز للمرأة شاردةً تفكّر!.
واستأنفت حديثها:
- اسمعي يا ابنتي!.. كانت حياتنا شغل وتعب!.. في الطبخ، والعجن، والخبز، والحقل.. لا نجد الفرصة لالتقاط الأنفاس!. اليوم، ما شاء الله، كل شيء عندكم!.. الثلاجة، والغسالة، والتلفزيون!.. والطائرة.. والتلفون!.. يتصل بعضكم مع بعض، من أول الدنيا إلى آخرها، في لحظة!. تقطعون المسافة في ساعات، بينما كانت تستغرق أياماً وشهوراً!.
- وهل هذا يكفي يا عمة؟!..
- أنا لم أقل يا ابنتي، هذا يكفي!.. فكّري!.. أعطيك مثلاً، أرسلنا الأولاد إلى المدينة، حتى يتابعوا الدرس. وماذا فعلوا؟!..ظلوا يعيشون فيها!.. رغم السرعة، وزمن السرعة!.. أولادنا في أوروبة يقولون، هناك يحدث العكس!.. يهرب الناس من ازدحام المدن، والدخان، والغلاء، إلى الريف. هناك يجدون كل شيء، القصور، وأماكن السياحة، الجامعات، الهواء النقيّ.. الصحة.. والراحة!. ونحن، الشغوفين بالتقليد، لا نقلّد الناس بالأشياء المفيدة!. يعني، نحن نحب الغلاء والبطالة، وأزمة السكن، والازدحام، والأمراض!. أليس كذلك؟!.
واخيراً، تعالوا، يا آباءنا، ويا أمهاتنا، شيلوا الهمّ عنّا!.
عندما أسمعهم يعرضون همومهم، أشعر بأن رأسي يطقّ!. لا أجرؤ على نطق كلمة!. إن فعلت سأجد معارضة ساخطة!. يريدون الشكوى من شيء، والدفاع عنه في وقت واحد!. وصلت إلى نتيجة، أن أسمع لهم، وأهزّ رأسي، وأردّد جملةً جامعةً مانعةً، أمان، جانم، أمان!.
أحكي لهم، كيف قطعنا دروب السفر أياماً وليالي بالخيل، والبغال، والحمير!.

كيف أضأنا الليل بسراج الزيت، وقطعنا الحطب، للدفء والموقد، وزرعنا، وحصدنا، وعجنّا وخبزنا!، فأراهم بأحداق مدوّرةٍ جاحظةٍ، مستغربين!.. مشفقين!. صغاراً وكباراً!. فإذا ذكرت لهم طبيبنا الذي يسكن بنايةً، من عشر سنين، ولا يعرف جاره، بينما الباب قدّام الباب، فلا دهشة ولا استغراب!. هذا شيء عاديّ!. من منّا يستحقّ الشفقة؟!.

- ربما كان منشغلاً مع المرضى ياعمة!. لا تقسي عليه!.
- منشغلاً مع المرضى، أم مع الممرضات؟!.

قهقهت المرأة ضاحكةً!.
واستأنفت العجوز:
- أيام المجاعة، وسفر برلك، يا ابنتي!.. كان الناس يسعفون بعضهم بعضاً، واللقمة لمن يحتاج، كأنهم عائلة واحدة!. طبيبنا لا يعرف جاره من عشر سنين!. فماذا لو حدثت لنا كارثة، أو خراب، ونحن لا نعرف جارنا، أو أقرباءنا؟!. اسمعي عمّ يتحدثون!، ما همّهم؟!. أليس في الأرقام، وما خلف الأرقام؟!، فإن لم يعد للأرقام قيمة!، أو وضعنا كومة أصفار على ورقة، لنشتري سمكةً صغيرةً مقدودةً، فماذا نفعل؟!، ماذا بعد؟!. نحن بحاجة للمال الكثير، والأصفار، فكيف السبيل؟!. حبائل الشيطان؟!، أم اليانصيب؟!، أم المخدرات!، أم الجنس!، أم الجريمة!. سنركض ونركض!. لعبة القط والفأر!. هل تسمعين الأخبار؟!. من الرابح؟!. السجن؟!، أم المصنع، أم التاجر؟!. أين الطبيب؟!، أيّ طبيب؟!. أضعنا العنوان!.
- شيء يوجع الرأس!. أرجوك ياعمة، اتركينا في الماضي، مع أجدادنا، هذا أفضل!.
- أما عندك جدّ يا ابنتي، أو جدّة؟!.
- لا!.
- أم عجوز، أو أب؟!.
- أبداً!. أنا يتيمة يا عمة!. نشأت يتيمة!.
- آهٍ!. يا لك من امرأة صامدة!.
اسمعي يا ابنتي!.. الحديث لا ينتهي!.. تريدين ذكريات الفرح، والعاصفة على الأبواب!. انظري!.. دعيني أقول لك كلمةً على عجل!، صحيح، كان الفقر والتعتير!.. وكان التماسك أيضاً والأثرة والثقة!. انظري هذا الانفلات!. لم نكن نعرفه!. يعني، عندما تكون البلدة مثل عائلة، فلا يخطر لأحد أبنائها الإساءة إلى أهله!. أسوأ غربة، يا ابنتي، هو أن يغترب الناس عن أنفسهم، وعن بعضهم بعضاً!. ستسألين ما السبب؟!. وأقول لك، الأنانية!.. إذا سيطرت يا ابنتي، تجدين الناس خصوماً وأعداءاً!.
- وماذا ترين يا عمة؟!.
- كان هناك التزام يا ابنتي!.
انظري، ماذا تجدين؟!. إما الإفراط أو التفريط، ماذا يعني؟!، الانحلال أو الجريمة!. عمري!.. لم أسمع إلاّ حادثتين. مرةً، استجارت بنت خاطئة بقائمقام البلدة، فأجارها. كان شيخاً نكنّ له الاحترام. قال، هاتوا الولد، فجاؤوا به. شدّه من أذنه، وقال له، ستصلح الأمر!. كتب العقد في الحال، ونادى على أهله وأهلها، فتلا عليهم قراره، وخرجوا بالزغاريد!. الحادثة الثانية مثلها. ماذا يعني؟!. تعلّم الناس التسامح والاعتدال والثقة فيما بينهم!. نحن،اليوم، يا ابنتي، نخسر ما تعلمناه!.

ضحكت المرأة، وقالت للعجوز:
- وأنت يا عمة!.. ماذا فعلت؟!.
- وأنت ماذا فعلت!.. سأقول لك ما فعلت!.
أنا لم أعش أسطورة عشق يا ابنتي!. مرت الحكاية بسرعةٍ وبساطة!. كنت في البازار، أبحث عن قطعةٍ من قماش الحرير. فدخلت متجراً، وصادفت هذا الغلام!، ألقى اللفائف، واحدة بعد أخرى، حتى ملأ المكان!. وراح يشرح!.. ثم اختار لي نوعاً، قال، هو الأفضل، وحتى يثبت لي ذلك، أشعل عود الكبريت في خيطٍ منه، وفرك الرماد!. هاك انظري الجودة!. وكأني خبيرة!. ثم راح يبعثر الكلام ويعبث. قال، إنه يراني في السوق من وقت لآخر، فتأخذه الدهشة، ويقول من هذه الفتاة الجميلة؟!. ثم بما أني جئت إليه على قدمي، فهذا شيء رائع!، وهو في أتمّ السعادة، فأهلاً وسهلاً، وماذا ترغبين؟!.. القهوة.. الشاي.. أم الحلوى؟!.
قلت في نفسي، لعله مجنون!. امتعضت، ولم أنطق بحرف!، أراد الاعتذار، لكني أعطيته ظهراً وخرجت في سرعة لا أعقّب. فمشيت، وراح ينتابني شعور غريب، أني فراشة، وأن المجنون ورائي، يمتطي حصاناً ويغني!. لم ألتفت إليه، حين وصلت كنت ألهث، فأغلقت الباب، وصوته ما زال في سمعي!. عندها، علمت بأني سقطت في غرامه، وأني عاشقة!. وأن العشق ما هو إلاّ ضربة قدر!.

بعد مدة، عدت لأشتري الحرير، قلت له، لا تحرقه، صدّقتك!.. هل تحرق الحرير لكلّ فتاة عابرة؟!. قال، أبداً، لك وحدك!. ولمّا لم تكترثي، وغادرت غاضبةً، خطر لي أن أحرق الحرير كله!. فضحكت. قلت له، أنت مجنون!.

بعدها جاء خاطباً، قال لي أبي، يا ابنتي، إن الفتى من بلاد العرب، فما تقولين؟!. ماذا أقول؟!، انفجرت ضاحكة، وأنا أستعيد المناسبة، لحظة أحرق الخيط، وكان مستعدّاً لإضرام النار في الحرير كله!. قال أبي وهو يهزّ رأسه، عرفت يا خبيثة!. تريدينه!. وخرج إليه، يدعو أهله للتعارف!. بعدها، جرت الأمور في يسرٍ تكلّل بالزواج!.

ثلاث سنوات، أنجبنا طفلين فيها، السيد الطبيب، والبنت المسكينة المهاجرة!. ثم راح، ولم يعد!.

وعاد العجوزَ طائفُ الماضي!..

ثلاث شموعٍ ضاءت، كما يلمع برق في السحاب، والرّعد يدوّي، وتسقط السماء المطر، ثم تأتي بعد بعدئذٍ السنون العجاف!.

مازالت تحفظ بعض الذكريات!.

ذات يوم، ساعة الأصيل، وقفا معاً يداً بيد، يشاهدان أسراب الطيور المهاجرة، كانت أنساق السمّان البديعة، في عرض السماء، بخطوطٍ محنيةٍ متعاقبةٍ، تضرب خفقاً بالجناح، كأنها تخيط الضوء بالظلام!. كلّ مساءٍ، يتكرر ذاك الطقس الرتيب، من ثم ينشر الليل سدوله، لتأوي قرب هذا الرجل، في البيت العتيق، وفي ذات المكان، تستقبل الدفء والسعادة والحلم الجميل، بنشوةٍ عارمةٍ لاهثةٍ، مازال صداها ذكرياتٍ حلوةٍ ماجنةً!. تعيشها بنبض القلب والروح، لحظة بلحظة. لتعود من حين لآخر، وتستعيد اللحظة ذاتها!.

إنّ غصّةً في صدرها، أن لا حظ لها!. ولو كان لها البقاء إلى جنبه، إذاً، لكانت سعيدةً. الآن تدرك، كان مجرّد حلم وانقضى. كبدر عابر ليلةَ صيف، أو كما يخطر النسيم، لتصحو بعدئذٍ، وفي جعبتها بقيةٌ من صورٍ!. بالكاد تقبض عليها، وتستعيد لحظة حدثٍ قديم، من زمن ضائع!. اليوم، يقف دونها السدّ مهدّداً متوعّداً!.

هنا، كان لها لقطة، مع ابنها في اسطنبول، وهناك!. مع ابنتها، في القوقاز!.

أما هي، آلة التصوير، والتحميض، فلم تزل تعمل دون كلل أو ملل، فوق جبل مشرئبّ على تلال الجنوب، مع قطيع الماشية، والبيت، والحقل، والجوار، في شريطٍ هو الأطول من عمرها، مرّ عليه الصبر والآلام، فلم تبرح!. تخلّت عن شيء اسمه، حلم امرأة، لأجل طفلين يملآن عليها الحياة بالأمل!. ولكن، أين هما؟!. راحا مع الريح؟!. كم نخرت رأسها الظنون، أنها تُعاقب، وتطرح السؤال ذاته، ماذا فعلت للأقدار حتى تُعاقب؟!.

اليوم، تريد أن تبقّى لها خيوط تشدّها إليهم!، مازالت أرواحهم تختال أمامها، مع كلّ فجر صاعدٍ، وشعاع مضيءٍ!. أقدامهم تدبّ من حولها، بصمة أصابع أيديهم على أغصان الشجر!. المقبرة التي ترفل في سلام، حيث يرقد الرجل المسجّى، مع من رحل!. والبيت، والصباح، والمساء!، الوادي، الجبل!. غناء الضفادع والجنادب، ثغاء الشّياه حين تجوع، خوار البقرة، عواء الكلب، والديك حين يصيح!. أصبح كلّ شيءٍ حزمةً من ضباب، يوشّح المشهدِ الكئيبِ!.

رافعة رأسها إلى الغيوم، فاحترك بؤبؤا عينيها مع سحابة تمرّ، وجال الدمع، فاجتمع في المحجرين، مندفعاً بخفق الأهداب، وتدحرج منساباً في خيطين هابطين. قبل وصول الشفة، قطعت العجوز الطريق عليهما بمنديلٍ قماشيّ!.

وأستأنفت:

- أول الشتاء، كانت ليلةً ماطرة، ونحن حول موقد الحطب، بينما الصندوق العجيب يبثّ خطاباتٍ ناريةً من برلين، أخبار الحرب، والموت، والدمار!. هنا، ذهبت تعلن الحكومة النفير العام، وتسوق الرجال والفتيان والدواب إلى المعركة!. في هذه اللحظة، سمعنا الطرق على الباب. وإذا الدرك يبحثون عن زوجي. قلنا لهم، مسافر!. فلم يصدّقوا!. فتشوا البيت كله، كأنه مجرم يريدون القبض عليه. أبلغونا الأمر العسكريّ، كي يلتحق بهم، فبصمنا لهم، ثم غادروا!.

كانت المأساة يا ابنتي!. صادروا الناس والدواب والمؤن، كلّ شيء!. والمحظوظ، من أخفى حفنة قمح تحت التراب!. ولكن كم تدوم الحفنة والقنطار؟!. انتشرت المجاعة والأوبئة، وقطاع الطرق والسلب والنهب والجريمة!.

وعاد زوجي، فلم يلتحق بهم، فرّ إلى الغابة مع من فرّ، أراد كسب الوقت، وقال، ربما تكون حرباً عاجلةً وتنتهي!. يسترق المجيء، من وقت لآخر، في عمق الليل، حاملاً القوت والصيد، فيوقد ناراً ويشوي. يضع الطفلين على ركبتيه، لقمة لهذا ولقمة لتلك، يحكي لهما عن الغابة، حكايا الأطفال. الذئب المخادع ينصب شركاً للحمل، والسلحفاة الحكيمة تسخر من أرنب، والوحش المتغطرس، يرى في الماء ظلّه، فيقذف نفسه فيه!. وهما في دهشة يضحكان، حتى يستسلما للنوم، ثم يأتي دوري، ليحكي عمّا كابد في صقيع البرد والزمهرير، وخطر

الوحوش، التي تأكلهم، ويأكلونها!.
آخرَ مرةٍ، لم يغادر!.
ولا نعرف، يا ابنتي، كيف طار الخبر إلى الحكومة، فإذا الباب يطرق!. وهم يقتحمون، في لحظة واحدة، حلق نصف شاربه، وترك نصفه الآخر. ثم خلع السروال، وراح يرقص ملوّحاً به!. أمام هذا المشهد، سقطوا في غمرة الضحك، حتى ترامى بعضهم على بعض، وكتبوا، هذا مجنون!.
عندما غادروا، قال لي، هل سمعت؟!. أنا المجنون بنصف شارب، أما من اجتثّه كله، وأبقى ثلاث شعرات في الوسط، فهو العاقل، والبطل الزعيم!. انتظري. لا يفهم المجنون إلاّ مجنون مثله!.

- هل تعرفين حكاية المجنون؟!.
- لا!.
- اسمعيها إذاً!.
في يوم، خطف المجنون طفلاً، وصعد مئذنة المسجد!. أراد الناس اللّحاق به، فقال لهم، عندكم!. أرميه إن اقتربتم!. قال أحدهم، ما العمل؟!. قال آخر، جيئوا له بمجنون يفهم عقله!. فجاؤوا له به. ناداه هذا من تحت، هل تعطينا الطفل، أو نقطع المئذنة بك؟!.. فضحك الأول وهو يسخر من قوله، كيف تقطع المئذنة؟!. بيدك، أم بلسانك؟!.. ردّ الثاني، لا، بشيءٍ آخر. والتفت قائلاً، أحضروا السيف!. فجاؤوا له به، عندها، كرّر القول له، تعطينا الطفل، أو أقطع المئذنة بك؟!. وهنا، هبط المجنون في سرعة، فقدّم له الطفل راكعاً يطلب العفو!. لمّا انتصر الثاني، رفض المكافأة ملوّحاً بالسيف، وهو يخطب:
"خذوا الطفل، والسيف معه".

أفشى المخبرون السرّ للحكومة، أن المجنون غير مجنون!. وعادوا يبحثون عنه، ففرّ إلى الغابة من جديد!.
جاء رئيس الدرك غاضباً كوحش هائج!، وصرخ بالصوت المجلجل، أين المجنون؟!. مازلت أذكر أسنانه البارزة الصفراء. قلت له، لا أعرف!. قال، كاذبة!. تعرفين!.. إذاً ارقصي لنا بدلاً منه، كما فعل!. صرخت في وجهه، هل هذا ما تحتاجونه في حربكم؟!. اذهبوا إلى الجحيم!. فتقدّم بوجهٍ ممتقع، وكال لي صفعةً!. مازالت أسنانه الصفراء في عينيّ. كان يصرخ، لو لم تكوني امرأةً يا امرأة، لكان لنا شأن معك!.
وما هذا الشأن؟!. لو لم أكن امرأة لكنت رجلاً، ولو كنت رجلاً لكنت جندياً، وكان لهم شأن معي!. شأن الوحش القابض على فريسة، للذّبح والشّواء!. أما كانوا يبحثون عنه، وكأنه مجرم هارب؟!. لم ننتظر طويلاً!. قبضوا عليه، وأحضروه مكبّلاً في طريقه إلى الحرب!.
ثمّ راح، ولم يعد!.

- أما كتب إليك يا عمة؟!..
- رسالتين!..
واحدة، بعد ستة أشهر، وواحدة، بعد عشرة!. بعدها، انقطع الخبر كليّاً!. لم يكلّفوا أنفسهم عناء إخبارنا باستشهاده. حاولنا التماس بصيص الأمل، لعلّه سقط أسيراً أو جريحاً!. قال لنا ضابط، وهو يضحك ضحكةً غبيّةً ساخرة، ما رأيك إذاً، في ملايين الموتى؟!. كيف نعثر على أشلائهم الطاهرة، حتى نردّها إلى أهلها المحترمين؟!.

- وماذا كتب لك يا عمة؟!.
- في الأولى، كتب عن حياة الثكنة، والسّخرة، وشقّ الخنادق، ورفاقه، والمأمور الماكث فوقهم يشتم ويلعن!. أما أنهيتم الحفرة، يا حمير؟!. فهل تلعبون؟!. قالوا له، لا نلعب!. صرخ فيهم، اخرسوا!. قال لهم أخيراً، أصبّ الشتائم عليكم، كونهم يصبونها عليّ!. هل فهمتم يا حمير؟!. قالوا له، نعم، فهمنا، يا سيدنا البغل!.
وكتب يمزح، إن شاربه قد استطال، ولكن، لا مقصّ ولا مرآة!، فأخذ يلوي بالطعام إلى فمه، ما يضطرّه لالتقاط كلِ واحدة، كالشعرة من العجين!. وأوصاني بالصبر والأمل، والطفلين!.

أخرجت العجوز ساعةً بسلسالٍ فضيٍّ طويلٍ، وقالت:
- هذا من ذكرى المحارب!.

واستأنفت:
في الثانية، أخبرني بوجوده في الجبهة، والطقس سيّء عاصف، قد أغرق المطر الخنادق، والريح أطاحت بالخيام. والقصف والغارات، والأوامر بنزول الدهاليز والمستنقعات!. حتى أرهقهم الجهد والبرد، واستبدّ

المرض!. أخبرني بأنهم على أحرّ من الجمر، في انتظار الهجوم. شعرت، يا ابنتي، أنه وصل حدّ اليأس، ،وهو ينتظر الموت بشغفٍ ولهفةٍ، كأنه يرى الخلاص فيه!.
وجاء الأمر، فاحتلوا خنادق العدوّ، وكانت عبارة عن مستنقعات، تطفح بالمياهِ الآسنةِ والجثث والرائحةِ الكريهة. كان القصف من فوقهم لا يهدأ، فيسقط القتلى على قتلى، ويئنّ الجرحى يائسين!.
ثمّ جاء الأمر بانسحاب الميمنة، فالميسرة، وظلوا هم عالقين في الوسط. حتى اشتدّ الحصار، ونفد الغذاء والدواء، وهدّهم الجوع والمرض، وذهبوا يقتاتون على ما ترك العدوّ، من فضلات الخبز اليابس، والقمامة!.
حين فكّ الحصار، وصلوا إلى النفس الأخير!. كتب، لو تأخر الحصار يوماً واحداً، لبدأنا في نبش الجثث وأكلها!. كانت الفكرة جاهزة!.
أوصاني كذلك بالطفلين. وخبر الشوارب التي استطالت أكثر!.. فكان الحلّ، أن عقد ورفاقه جدائل منها، ربطوا واحدة بأخرى، خلف الرأس، في هيئة مخلوقاتٍ بدائيةٍ، من العصر الحجريّ!.
وكتب مقطع أغنيةٍ حزينةٍ، هل تحبين سماعها؟!.
- نعم، أحبّ يا عمة!.

راحت العجوز تدندن بصوتٍ شجيّ، وقد اغرورقت عيناها بالدمع، فأخذت المرأة تكفكف لها، وتبكي!. بانتهاء الأغنية، صفقت لها المرأة. فقالت العجوز:
- كفاك تصفقين، انظري!، وصلت العاصفة!. أمان، جانم، أمان!.

احتجب شعاع الشمس، وتسلّل بالكاد، خلال ركام الغيوم، ضوءٌ مكفهرّ داكن!. فيما لاح في الأفق البعيد سواد مسدود، يضرب البرق عليه شعاباً من نار، ويضيء، كلّ مرةٍ، جهةً بالألق، ثم ينسحب، فيعود السواد مكانه. لا يلبث أن يختلج مع بارقةٍ جديدة، يتلوها انفجار يمخر في الفضاء، وتثب على أذياله أصداءٌ معربدةٌ!.

مسحت العجوز المدى المشتعل بنظرة طويلة، وتابعت قفز الرعد المدويّ، من مكانٍ إلى آخر، حتى سقط انفجارٌ شديد، ولم تزل الريح تدفع الغيوم، فيظهر الشامخ منها في الأعالي متماسكاً مكفهرّاً، والواطئ في شراذمَ مفكّكةٍ مبعثرةٍ، يلتحم صدفةً، وينحلّ صدفةً!.
واشتدّت العاصفة!..
اجتاحت الريح الهائجة أرتال الشجر، على أرصفة الشارع، وجعلت أغصانها أياديَ تخبط في جنون!. حتى تحطمت مظلات المحالّ!، تعطلت ستائر الشرفات!، وسقط ركام من حَبّ البَرَدِ، فافترش الطريق غطاءً أبيضَ ناصعاً من كريّاتٍ صغيرةٍ!، وتوقف السير كليّاً، واسّاقط الأثاث، خلال شرفات المباني، من كراسٍ وستائرَ!. فهرع الناس في كلّ اتجاه لا يلوون!.

حدّقت العجوز بذهول في القصف الجارف!. لم تنطق بحرف. رفعت عينيها إلى السماء مرةً أخرى!. ثم هبطت ترى ما يحدث عن كثبٍ!. وما إن هدأ الهدير قليلاً حتى أعلنت للمرأة، أن وقت الوداع قد حان يا ابنتي!. مسحت على رأسها بالأنامل، وابتعدت تنقر بالعصا، فيما لاحت شرافيف عصابة الرأس خفّاقةً وراءها!.

لم تزل السماء تسقط المطر، وامتصّ ثوب العجوز ماءاً كثيراً، فأضحت بالكاد تخطو!. وقفت إزاء سورٍ، من قضبان الحديد، لمقبرةٍ صغيرةٍ قديمةٍ، وتلقائياً ولجت لتجلس في ركنٍ هادئٍ، عند مصطبةٍ وطيئةٍ، شاخصةً إلى جذوع الشّجر العالي، حيث شكّلت خيمةً مانعةً الأمطار والعاصفة!.

العجوز تحبّ المقابر، إنها صديقة الموتى!.. تسترسل معهم بالتأمّل. وقد حفظت جملةً عن أبيها تقول، إن في زيارة الموتى خيراً لنا يا ابنتي!. تعيد لهم الاعتبار، ولنا الذكرى!. هنا، نستعيد أحداث الماضي الجميلة، ما يحرّك خيالنا البليد، ويضفي عليه حيويةً وطمأنينةً. ولأننا روحٌ تائقةٌ للمحبة والسلام يا ابنتي، نصير كالغربال، لنطرح القبح والضغائن!.
ها هي الأحجار، لم تزل بحروفِ عربيةٍ نافرةٍ، وأشكال بديعةٍ!. تقف الشواهد معها في جلالٍ بهيّ، صاعدةً درجاتٍ ومصاطبَ، لترفعَ العمائم والأسماء، ويبقى التاريخ تحت!. لم يعد الموتى يحفلون بالزمن!.
رفعت العجوز الرأس، وأغمضت عينيها، لتقرأ الفاتحة. ثم أطرقت ترنو إلى حافّةٍ حجريّةٍ نابتةٍ بعشبٍ مخمليّ دقيق، مرّرت عليه الأنامل، وقرأت أرقام التاريخ!.
آهٍ!، أمان، جانم، أمان!. مضت مئات السنين!.

شعرت للتوّ برجفة البرد، وألقت نظرةً خارج السور، إلى مشاةٍ عابرين!.
إنهم في سرعة من أمرهم، وقلّما يلتفتون!.

تفكّر العجوز في أمر هذا الجيل!. إلامَ يحثّ الخُطى؟!.. وأين سينتهي به المطاف؟!.
ثم قطعت لحظة الشّرود، وقامت تواصل السير!.

عادت الحركة في حذر، والريح ما زالت تهبّ باندفاع مباغتٍ، وتعبث في شؤون المارّة، فامرأة بشعرٍ مصطفقٍ في كلّ اتجاهٍ، وأخرى تحاول بكلتا يديها لمّ الشّعر والتنورة!.. ورجل عجوز لفّ رأسه بالمنديل تاركاً للعين ثقباً وحسب!.
وقفت العجوز، وشدّت رباط عصابة الرأس المرخيّ، واطمأنت عليه.

ها هي التروموای العابرة تطلق الأجراس، فأومأت لها العجوز!. أن مرّي عليك السلام!. رفعت عكازها أمام سيارة منطلقة، أنها تريد قطع الطريق!، ثم أخذت جانب الرصيف، من ثم كلما حاذت شجرة تعصف بها الريح تمهّلت، ولامست الجذع برأس العصا في رفقٍ!.

وأخيراً، نقرت باب مسجد السلطان أحمد!.
وقفت في الرّواق الدائر حول الباحة، ترفع نظرةً بعد أخرى إلى الأغصان التي ترتجح مع وميض قطر الماء المعلّق بالأوراق!. هنا، يخفّ الطقس الجامح، حتى لتبدو الريح في مزاحٍ مع الأشجار، تدفع لها الأراجيح، وترنّم نشيد الرياح!.
في الواجهة، القوس الحجريّ. ويلفّ الرّواق الدائر وصولاً إلى مدخل الحرم!. فاجتازت العجوز المسافة، وخلعت حذاءها، ثم تقدمت على سجّاد أحمرٍ نحو المزار، حيث القضبان المشبكة بنحاسٍ مطليّ بالذهب، وقد علّق الزوّار أيديهم بأكمام معاطفَ مبتلّةٍ تسحّ ماءً!. في المقابل، الهيكل، والضريح والعمامة بأقمشةٍ خضراء. ثم صندوق جمع التبرعات.

علّقت العجوز يديها بالقضبان. وتسلّل إليها همس ترتيلٍ وأدعية. انتبهت إلى ثرّيا ضخمةٍ معلّقةٍ بسلسالِ الزرد، من قمة القبة السامقة، وحتى مسافةٍ قريبةٍ من قامةِ المارّة. ضوء المصابيح الصغيرة باهتٌ شاحب!. والزجاج الملوّن، للنوافذ في مدار القبّة، يشعّ من حين لآخر، مع البرق الخاطف، وهدير الرعد. فأدركت العجوز أن العاصفة عادت من جديد. وشعرت لحظة كانت تحدّق في المشهد، بدفق الشعاع الصاخب يسقط في أعماقها، مع كلّ شهيق وزفير!. فانتشلت يديها من القضبان، واستدارت في خطىً سريعةٍ تجاه الباب العالي، فحملت الحذاء، لم تنتعله، ومكثت، في الرواق الدائر، تراقب ما يحدث في الساحة!.

عادت السماء تصبّ سيلها الطافح ماءً، حتى صارت الساحة بحيرةً. وتجمّع زوّار أجانب يتابعون المشهد العجيب في رهبة!. فتقدّمت العجوز من وسط الساحة، وهي حافيةٌ تحدج السماء، فلبثت هكذا دون حراك، حتى صارت شلاّلاً يغدق الماء طيّةً إثر طيّة، فينثال وثباً فوق ثنايا الثوب، لينتهي في البحيرة!.
أخيراً، وقد عمّدها الماء، استدارت صوب الرواق، وراحت تجرّ رجليها من غمرٍ طافحٍ!.
تحت القوس، امرأتان. قالت إحداهما:
- يا عمّة!.. صديقتي الأجنبية، تريد أخذ صورة لك!.

فوقفت العجوز للكاميرا، بطولها السامق، وعصابة الرأس، وابتسامة صغيرة واثقة!. لكن المرأة السائحة راحت ترجو أحداً ما، كي يلتقط لها الصورة، وتكون هي في المشهد!.
وغادرت العجوز المكان!.

دخلت محطة التروموای، واحتلّت قضبان السكّة ماكنةً تصيخ السمع لرنين آتٍ من قاع الزمن!، كانت عربة التروموای تقترب!. وتصاعد الصدى في رأسها حاملاً معه صوت رجل نبيلٍ، يكرّر لها بضع كلمات ويقول: "تحرّكي.. يا ابنتي، واتركي السكة.. تحرّكي!." هذا الصوت تعرفه!.
وفجأة، وقف شابٌ عابرٌ، ونادى عليها: أماه!. اتركي السكة!. ماذا تفعلين؟!. تتحرين؟!.
فانتبهت العجوز للشاب، وحدّقت فيه!، إنه ليس ابنها!.
ثم عاد صوت الرجل النبيل يهمس في رأسها ثانيةً بوضوحٍ أقوى:
" تحرّكي.. يا ابنتي.. تحرّكي!."
إنه صوت أبيها!. تعرفه جيداً!.
وفي اللحظة، انطلق زعيق أجشّ لسائق التروموای جاحظ العينين، برأسٍ تدلّى خلال قمرة القيادة:
ماذا تفعلين هنا يا امرأة!. أيتها العجوز؟!.

في اللحظة، وثب الشاب للتوّ آخذاً بيدها في اتجاه الرصيف!.

اجتازت العجوز مسافةً، ومكثت عند سور الحديقة، تحت الشجرة، كي ترتاح قليلاً. تبتعد، عن يمينها، ترومواي هابطة إلى المدينة، وتقترب، عن يسارها، تلك اللاحقة، من ثم الصاعدة، في المقابل. كانت السماء ترمي حبالاً من ماءٍ، فيبدو المشهد ضبابياً، تجلوه، من حين لآخر، ريحٌ عاصفةٌ. لا أحد في الطرقات، والحديقة مقفرة!. فمدّت العجوز يداً، واستعانت بالغصن المنحني، كي تنهض من جديد!.
حين صارت العجوز في مهبطٍ غامر بالسّيول، والسماء مازالت تلقي المياه، التي تنساب طيّات عليها، والبرق يطلق النار، والرعد يبعث انفجاراتٍ تشرخ الأفق، وتوهّج الغيم المضيء بالألق، فأوشكت أن تغرق!. عندها، رفعت عينيها إلى السماء، غير عابئة، تدور حول نفسها، وتردّد كلماتٍ مبعثرة:

مئتا ألف ليرة.. يا عمّة!..
من فضلك يا عمة!..
مئتان وخمسون ألفاً فقط.. ياعمة!.
يا عمة!.. يا عمة!،
للجرعة!.. يا عمة!.

والحال هذه، في معمعة الصخب، كان ثمة أصوات شجيّة تنبثق من براثن العنف!، من همس خلال هدير المطر!، وأنين في عواء الريح الضاربة أغصان الشجر!، من حفيفِ عذبٌ أغنّ، في بحّة إيقاع مائيّ راكضٍ بسيلٍ غزير دافق، يدور في منافذ الأرض بالتفافٍ حلزونيّ، ويغرغر، ثم يغور. من ثم يمدّه المدد!.
أمام الجوقة الصارخة تلك، والسماء تضجّ لمعاً وبرقاً وصخباً بانفجاراتٍ تدوّي، انطلق غناء العجوز, وهي تتحني، لتملأ كفّيها مطراً، ترشق به هنا وهناك، وتصدح، ترنيمة الماء، في حنوٍّ بالغٍ:

أولادي، يا خلق الله!..
تعالوا، لمّوا الماء.. اشربوها!.
اجمعوها!..
اسقوا العطاش، للصحارى انشروها..
لا تحصروها!..
لا تمنعوها!..

أولادي، يا خلق الله،
احضنوها !..
مثل الهواء روها!..
لا تحصروها!..
لا تمنعوها!..

أولادي، يا خلق الله!..
غنّوا لها..
اسمعوها!..
اكتبوا لها.. اقرؤوها!.
لا تحصروها!..
لا تمنعوها!..

أوّاه... أوها!..
أوّاه... أوها!.

صرخ رجل عابر..
- ولكن يا عمة!.. تعالي، من هذا الطقس الفظيع!..

أومأت له العجوز، وهي ما زالت ترنّم:

أولادي، يا خلق الله،
مثل الهواء.. روها!..
لا تمنعوها!..

- ولكن.. يا عمة!.
- أولادي يا..
- ياعمة!. احتمي!.
- بوركت يابنيّ!. إني عائدة!.
- أين؟!.
- إلى بيتي!.

* * *

في المحطة!.
القطار يستعدّ للسفر..
صافرة الحركة..
ثم الانطلاق!..

تابعت العجوز ركض المباني للوراء. والسّكّةُ تلوي بالقطار، حتى إذا استقامت استقام، و ازداد سرعةً، فأضحت النافذة شاشةً لاهثةً!.
مسحت العجوز الشريط المنطلق بالنظر. ثم شعرت بارتخاء التعب، فألقت رأسها إلى مسند الكرسيّ، واستسلمت للنوم!.

قطرة.. قطرة !..
تسحّ ثيابها المبلّلة، على مقعدٍ جلديّ، وينساب خطّ الماء في الممرّ، خلال أفاريز مطاطيّة، حتى نهاية المقطورة. هناك يأخذ بالتسرّب، خلال بابٍ موصدٍ قطرةً.. قطرة، وينتهي فوق دواليب الفولاذ، فقضبان الحديد، فالحصى!.

المقطورة شبه خالية!..
ولم يزل القطار يخترق أنساق المباني صاعداً الجسور، عابرًا الأنفاق.
هنا، يفصل النهر المدينة نصفين، كذلك البحر يفصلها. وحدها السماء، تمدّ سقفاً متصلاً طويلاً!..

لوى القطار في المنحنى، ليظهر النفق بغتةً، فاستقام كالسهم، واخترق الجبل. وباجتياز الضواحي، أقلع من جديد ينهب المسافات خلال الغابة، والأنفاق مستوياً واثقاً، فيما تميل السهوب، وتثب التلال، على الجانبين، رافعةً الأكتافَ تارةً، لاويةً الخصر تارةً، أو مادّةً ساقها إلى البحر تارةً أخرى!..

وصاح الديك، فرفعت العجوز جفنيها!..
هذي صيحة الوصول!، ويبطئ القطار السرعة على مشارف المحطة. هنا، حيث يلوح لفيف بيوتٍ متراكبة على سفح الجبل!. احتلت الغابة الجانب العلويّ منه في كثافةٍ، من ثم توزّعت في آكامَ متفرّقةٍ هابطة. يعمّم الثلج الهامة المشرئبة، ويغطي أغصان الشجر بطبقةٍ بيضاءَ ناصعةٍ. لم يعد للسقوف المائلة مرأى القرميد الأحمر، إلاّ من زوايا خجلى، لدى الأطرافِ المتقدّمة المجنّحة!.
تطوف المراكب، في الساحة الصغيرةِ، أمام المحطة، حيث نصب حجريّ في الوسط، وقد استقرّ الثلج فوق رأسه والذراعين، تاركاً خيوط ماءٍ متهدّل جامدٍ. وتلفّ المراكب، كالساعةِ الدائرة في هامش الزمن!.
تابعت العجوز المشهد حتى انطلاق الصافرة، فتحرّك القطار، وأرخت للنوم جفنيها!.

أضغاث حلم أسطوريّ!.. أشباح!.
غابةٌ من مرجان، بقرون غزلان ضخمةٍ خرافيةٍ، تكبر من قاع البحر بدايةً، وتصعد، لتشقّ السطح شامخةً مشرئبّةً!. وتضرب الحيتان بأذيال ضخمةٍ مرسلةً أمواجاً عاتيةً، تغمر الشطآن والهضاب والوديان!.
العجوز تصارع، وتلهث صاعدةً هابطةً، مادّةً يداً إلى البرق المارق، صارخةً بصوت الرّعد المدوّي!.. ثم تلوّح للعاصفة التي تهبّ!.. وتضرب البحر، فتلفّه لفّاً صاعداً كالجبال!.
ثم، بانتفاضةٍ قويةٍ، استجمعت قواها، وخرجت تلتقط الأنفاس. لتصحو مجفلةً مذعورةً !.

وصل القطار عند أطراف الجنوب، وهو يبطئ السرعة، حيث المحطة الأخيرة!.
فرفعت العجوز رأسها، وحدّقت في الظلام المدلهمّ المديد!. لم تستبن جبلاً أو غابةً أو بيتاً!. كان هناك شبح قطار قادم، يلفّ انعطافاً عند منحنى الجبل، وتبدو مصابيح الأعمدة، المزروعة على طول الطريق، في الدجى، ذبالاتِ شمع باهتةً، تلوي باتجاه الذيل ركضاً إلى الوراء، وتلتفّ حوله!..
هنا، في هامش الزمن، والمكان الصعب!.
والآن، أيتها العجوز!. يجب النهوض!. الحيوانات الجائعة تنتظر، والبيت، والحقل، والسدّ !.
ثمة أصوات تصرخ من بعيد، فتنبح، أو تخور، أو تزأر!.

- تمت -

صياغة أولى، في: 18-4-2001 ثانية، في: 7- 3 -2007 ثالثة، في: 22-7-2010
تصحيح 7-4-2012